الاسم واللقب : حملاوي مهتور
عنوان المداخلة: فصل المقال فيما بين "العالمية" و"الكونية" من الاتصال

الملخص:

يعتقد البعض أن الكونية والعالمية وجهان لعملة واحدة، وأنهما بالتالي شيء واحد؛ فالعالمي يتماهى مع الكوني لأنهما يحملان معنى واحدا، وهو معنى الكلية، والشمولية، والامتداد، ولكن الواقع يثبت عكس ذلك فقد أصبح العالمي هو العولمي ذي الاتجاه الواحد الذي لا محيد عنه، ولا مناص من القبول به، وهذا يعني أن العالمية لا تتحقق إلا عبر عولمة أنماط الحياة، وأن الكوني بالتالي يتلاشى ويهلك في العولمة، وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال هذه الدراسة التي نسعى من ورائها إلى رسم الحدود الفاصلة بين العالمية والكونية تفاديا لأي لبس أو غموض .

والنتيجة التي نخلص إليها، ونحرص على عرضها في الختام هي أن العالمية لا يمكن أن تتماهى مع الكونية لأن العالمي الذي يحاكي الكوني ويحتكم إلى المبادئ والمثل الإنسانية العليا، ويقر بالحريات، ويحترم الخصوصيات قد ضاع وتلاشى في العولمي الذي لم يعد يؤمن إلا بالهيمنة والسيطرة، والقضاء على الخصوصيات، وانتهاك حقوق الإنسان .

كلمات مفتاحية: العالمية؛ الكونية؛ العولمة؛ الخصوصية؛ الهيمنة.

فصل المقال فيما بين" العالمية" و"الكونية" من الاتصال

أ. حملاوي مهتور

جامعة 20 أوث 1955سكيكدة

مقدمة:

إذا كان إنسان العصر الحديث قد كشف عن رغبته في تجاوز المحلية، والانتقال إلى أفق وفضاء أرحب وأوسع هو فضاء العالمية فإنه سرعان ما أدرك بأن العالمية التي ينشدها ليست عالمية حقيقية بل هي عالمية مزيّفة فقد

اكتشف بأنها عولمة تدّعي العالمية والكونية، وقد أصبح البعض يستخدم مصطلح الكونية كمرادف لمصطلح العالمية الذي كثيرا ما يتم الخلط بينه وبين العولمة، نظرا لاشتراكهما في الكلية، والشمولية، والامتداد، والتي هي من خصائص الكوني .

ومن هنا تأتي أهمية الحديث عن العالمية في علاقتها بالكونية؛ خاصة في ظل وجود الخصوصية التي تتميز بها الدولة المحلية، وفي ظل ضرورة الانفتاح على عالم التنوع الثقافي بين شعوب ودول العالم، وهو الأمر الذي يفتح المجال لدى الدول القوية للسيطرة والهيمنة على الدول الضعيفة، وهذا ما تسعى إليه العولمة، ولذلك ينبغي تحديد علاقة هذه الأخيرة بالعالمية تفاديا لأي لبس أو غموض .

وعلى ضوء هذه المعطيات ترتسم ملامح إشكالية بحثنا هذا، والتي تتعلق بطبيعة العلاقة القائمة بين العالمية والكونية، وأثر العولمة في تعميق الهوة بين العالمي والكوني، والحيلولة دون تحقق الكوني عمليا، وفصله عن العالمي، وهي الإشكالية التي يمكن تفكيكها إلى جملة مشكلات أو عناصر جزئية على النحو الآتي: ما مفهوم العالمية؟ ما مفهوم العولمة ؟ ما مفهوم الكونية؟ وهل يمكن للعالمي أن يتماهى مع الكوني أم أن العولمة تحول دون تحقيق هذا التماهي؟

وفي محاولة منا للإجابة عن الأسئلة السابق ذكرها سنعتمد على المنهج التحليلي، وبعض أوجه المنهج المقارن لأن طبيعة الموضوع تقتضي ذلك، وقد التمسنا لأجل ذلك خطة تستجيب لمسعانا المنهجي، وقد عملنا بمقتضاها على تقسيم بحثنا إلى خمسة عناصر نتناول في العنصر الأول منها مفهوم العالمية، وفي ثانيها مفهوم العولمة، وفي الثالث منها مفهوم الكونية، وفي رابعها العولمة والعالمية وضياع الكوني .

أولا: مفهوم العالمية:

العالمية بمعناها الأصيل هي نزوع نحو الارتقاء إلى المستوى العالمي بغية المساهمة في التطور الثقافي والحضاري، وهو نزوع يعتبر التنوع، والتعدد، والاختلاف أمور ضرورية لبناء الحضارة الإنسانية؛ كما أنه يخاطب إنسانية الإنسان، والقيم المشتركة بين البشر، ويدعو إلى التفاعل والحوار بين الثقافات والأديان، ويؤمن بالتكامل بين المجتمعات، وهو التكامل الذي يتجسد من خلال تبادل الخبرات والمعارف الإنسانية، والعمل الجاد والفعال من أجل التأسيس لحوار إنساني عالمي قوامه الاعتراف بالآخر واحترام خصوصياته الحضارية، بعيدا عن حب التسلط والهيمنة الاقتصادية والثقافية، ومن هنا تكون العالمية عبارة عن أخذ وعطاء تفرضه ضرورة الانفتاح على ثقافات الغير تحقيقا لما فيه خير الإنسانية، فالعالمية تعني المساهمة في الثراء والتنوع مع الحفاظ على الخصوصيات والمقومات الشخصية، فهل يمكن للعالمية بهذا المعنى أن تتحقق عمليا في ظل العالم الناشئ اليوم؟

إن العلاقات بين الدول والجماعات التي تنتمي إلى حضارات مختلفة لا يمكن أن تكون وعلى ما يبدو علاقات ودّية وثيقة دائما، بل غالبا ما تكون علاقات عدائية، فالعالم الناشئ اليوم مليء بالنزاعات والصراعات وهو عرضة للدخول في صراعات جديدة، ويعتقد صمويل هنتنجتون(Samuel Phillips Huntington)(1927- 2008) أن أشد، وأقسى، وأعنف أنواع الصراع القائم هي تلك القائمة بين الإسلام وجيرانه الأرثوذكس، والهندوس والأفارقة، والمسيحيين الغربيين، هذا على المستوى الأصغر أما على المستوى الأكبر فإن الصراع قائم بين الغرب والآخرين؛ دون أن ننسى

الصراع القائم بين المجتمعات الإسلامية من جهة، وكذا الصراع القائم بين هذه المجتمعات الإسلامية والغرب من جهة أخرى. ومن المتوقع في نظرهنتنجتون أن تنشا مستقبلا صراعات خطيرة نتيجة لتفاعل الهيمنة الغربية، والتعصب الإسلامي والطموح الصيني[1].

وينبغي التمييز هنا بين العالمية الحقة والعالمية المزيفة، فالعالمية الحقة هي تلك التي تؤمن بالحوار والتكامل والتفاعل المثمر بين مختلف الثقافات، أما العالمية المزيّفة فهي عالمية الغرب[2] تلك التي فرضها منطق القوة والغطرسة، والهيمنة، والاكتساح الغربي ـ وخاصة أمريكا ـ وهي عالمية استحواذية مدمّرة، وخطيرة التأثير على بقية العالم، وهي عالمية ينبغي تحدّيها والتصدي لها، والمؤكد أنه و"مع زيادة القوة النسبية للحضارات الأخرى، يقلّ التوجه نحو الثقافة الغربية وتزداد ثقة الشعوب غير الغربية بثقافتها الأصلية والالتزام بها" [3].

إن الذي زاد في تقوية النزوع الغربي، والأمريكي خاصة نحو العالمية هو سقوط المعسكر الشيوعي وانتصار اللبرالية كونيا فأصبحت الإيديولوجيات الليبرالية الديمقراطية صالحة للتعميم عالميا، وزادت رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في إخضاع الشعوب غير الغربية، وإرغامها على الالتزام بقيم الغرب في كل ما يتعلق بالديمقراطية، والأسواق الحرة، والحكومة المحدودة، وحقوق الإنسان، والفردانية، وحكم القانون، وبضرورة تجسيدها لتلك القيم في مؤسساتها، غير أن ما تعتبره أمريكا عالمية تعتبره الشعوب الخاضعة لهيمنتها استعمارا[4].

والذي لا شك فيه هو أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تكف عن مواصلة البحث عن التفوق والتوسع والدفاع عن مصالحها الخاصة التي هي في نظرها "مصالح المجتمع العالمي"، وهي تطلق هذه التسمية على مصالحها في محاولة منها لإضفاء الشرعية العالمية على كل الأعمال المعبرة عن مصالحها ومصالح بقية القوى الغربية [5] وبذلك يصبح العالمي هو الأميركي والعولمي، وإذا كانت العولمة حقيقة واقعية، وهي تكشف عن قدرتها الفائقة على الامتداد، والاكتساح الثقافي فهل يعني هذا أنها جسر ضروري للعبور نحو العالمية؟ هل ينبغي للعالمي أن يرتمي في أحضان العولمة لكي يتحقق وجوده ؟ هل يمكن القول أن حقيقة العالمي وماهيته لا تتحقق إلا إذا تماهى مع العولمي؟

ثانيا: مفهوم العولمة: يقصد بلفظ«عولمة» في اللغة الإنجليزية «Globe» كوكب الأرض،لأن لفظها حديث ومصدره «Globalization» أي كوكبة، أو عولمة..الخ.. وهي ترجمة لكلمة«Globality» ويعنى بها لغويا تحويل العالم إلى شكل موحّد؛ أما في اللغة العربية فليس لها أصل [6] .

ولقد تعددت الشروح وتنوعت التفسيرات التي حاول بها مفكرو العصر من المشتغلين بالفكر السياسي في اتجاهاته الثقافية والاجتماعية فهم العولمة وتفسيرها، ومع ذلك فإن أجمع شرح للعولمة، وأعمق تفسير لدلالاتها ومضامينها، لا يخرجان عن اعتبار العولمة– في دلالتها اللغوية أولا– على أنها جعل الشئ عالميا؛ بما يعني ذلك من جعل العالم كله وكأنه في منظومة واحدة متكاملة، وهذا هو المعنى الذي حدده المفكرون باللغات الأوربية للعولمة(GLOBALIZATION) في الإنجليزية، والألمانية، وعبّروا عن ذلك بالفرنسية بمصطلح (MONDIALISATION) ووضعت كلمة "العولمة" في اللغة العربية مقابلا حديثا للدلالة على هذا المفهوم الجديد[7] .

ودونما حاجة للدخول في عرض تعريفات العولمة، والجدل الدائر حولها[8] يمكن القول أن هناك اتفاقا كبيرا بين العلماء والمفكرين والباحثين العرب ـ على الأقل ـ على أن العولمة هي ظاهرة كونية جديدة، ناتجة عن تطور النظام

الرأسمالي للحضارة الغربية، وقد أخذت تفرض نفسها على دول العالم بوصفها عملية ختامية تقرّر حقيقة دمج بلدان العالم الثالث ـ وفي مقدمتها البلاد العربية الإسلامية ـ في النظام الرأسمالي الجديد باعتباره منظومة شاملة تتجاوز دائرة الاقتصاد إلى مجالات السياسة، والثقافة، والتربية، والفكر وأنماط السلوك الجديدة، وكل ذلك في إطار ثقافة موحّدة يراد فرضها وتعميمها على الشعوب والمجتمعات التقليدية، وتدعمها في ذلك إيديولوجية تعبر مباشرة عن إرادة للهيمنة على العالم أو أمركته، بقصد الوصول إلى حضارة عالمية واحدة [9].

وتسعى العولمة إلى سيطرة القيم الغربية الأمريكية على العالم، وسيادة النظام العالمي الواحد، وبالتالي إضعاف القوميات، وإضعاف فكرة السيادة الوطنية، وصياغة ثقافة عالمية واحدة تضمحل إلى جوارها الخصوصيات الثقافية، فالنمط السائد حاليا هو العولمة الأمريكية بمعنى أمركة العالم، وسيادة الأيدلوجية الأمريكية على غيرها من الأيدلوجيات[10].

وقد أصبحت العولمة مرادفة للعالمية، فالعولمة«Globalization»، والعالمية «internationalization» لفظان مشتقان من معنى الشمول، والكلية، والانتشار، والعموم، وبالتالي فكلاهما مصطلح لمضمون واحد، وذلك بالنظر إلى الغايات التي يقصدانها. فالعولمة تسعى إلى الانتشار والكلية لتعميم نفسها على العالم بوصفها نظاما يتجه نحو توحيد ودمج دول العالم، ومجموع الإنسانية في منظومة عالمية واحدة أو حضارة عالمية واحدة هي الحضارة الغربية عموما[11].

إن العولمة على حد تعبير ريتشارد رورتي (Richard Rorty) (1931-2007) من ابتكار الشعوب الغنية بهدف التستر على مصالحها السياسية أي أنها تقوم على اجتياح الثقافات الأخرى وتمكن القوى الكبرى من السيطرة على بقية الدول سيطرة اقتصادية وسياسية وثقافية [12] .

وعندما تصبح الثقافة تابعة للعولمة فإنها تصبح خاضعة للنموذج الأمريكي في الحياة كما أنها تتسلعن أي أنها تصبح خاضعة لقيم السوق، وفي هذا تهديد للهوية الثقافية، إن الانفتاح على فضاء العولمة يعني الخضوع للأمركة والعيش تحت السيطرة الأحادية الأمريكية، وهذا يعني أن العالمي هو الأمريكي، والمؤكد أن كل الدول التي تنفتح على فضاء العولمة هي دول تسعى إلى تعميق وتطوير سياستها واقتصادها وثقافتها. وإذا بها تكتشف بأن الضرر والشر الذي أصابها أكبر من الخير الذي تجنيه [13].

إن التسارع المذهل للعولمة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وما ترتّب عن ذلك من آثار على حركة البشر وقدرتهم على التنقل عبر حدود الدولة الوطنية، سيؤثر تأثيرا عميقا على مجريات الأحداث اللاحقة، فلم تعد الوثيقة الحاسمة لهوية هذا القرن هي شهادة ميلاد الدولة الوطنية أو القومية، وإنما وثيقة الهوية الدولية أي جواز السفر، وهذا يؤثر من دون شك على ولاء المواطن للدولة الوطنية، وحتى على معنى حقوق وواجبات المواطنة وتتحول بذلك هوية الدولة الوطنية إلى هوية خاصة قوامها البحث عن لقمة العيش تحت شعار"حيث وجدت الخبز فداك موطني"، وهذا يطرح من دون شك مشكلة نوع التربية التي يجب أن يتلقاها المواطن، وهل يجب على الدولة أن تتجه إلى عولمة التربية أم إلى تربية واعية بالعولمة ؟[14] .

ثالثا : مفهوم الكونية:

الكونية " Universalisme" هي الذهاب من الخصوصية إلى معانقة ماهو مشترك من قيم بين الإنسانية وهي أفق للبشرية وحلم الثقافة الإنسانية يستند إلى مقولات التقدم والعقل والتضامن والحداثة[15]، وعندما نتكلم عن الكوني فإننا نتكلم بالضرورة عن المبادئ والقيم الإنسانية العالمية، قيم دعت إليها الديانات السماوية، وجاء الإسلام كدين كوني معبّرا عنها ومجسّدا لها، وداعيا إلى الانفتاح والائتلاف في ظل التنوع والاختلاف يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير }[16]، وتقتضي الكونية احترام خصوصيات الآخرين والاعتراف بهم كذوات مستقلة، كما تقّر الكونية بالحوار الثقافي والحضاري وتنبذ الهيمنة التي تحول دون الانفتاح و التنوع الثقافي .

وقد كرّست الكونية الإسلامية حوار الحضارات عبر العدل، والتسامح، والتآخي، والإحسان، والأمانة والتضامن، والتي بفضلها استطاعت أن تتعايش مع اليهود والنصارى في المدينة والقدس والأندلس ومصر، فقد آمنت الكونية الإسلامية بحرية المعتقد، ودليل ذلك أننا نجد المسجد بجانب الكنيسة . فمنطلق الكونية الإسلامية هو كرامة الإنسان، وقد استهدفت الكونية من خلال عالمية التكريم الإنساني إقامة حضارة إنسانية عالمية قوامها تبعية وحدة العالم، ووحدة الكون، لوحدة الله، ووحدة سننه و قوانينه الكونية، فالكونية تعني أن البشر يخضعون لنظام كوني واحد .

ولذلك يمكن القول بأن الكوني مفهوم ديني بالدرجة الأولى فهو يقدم رؤية شاملة للكون، وهو يكشف عن ضرورة انصياع كافة المخلوقات لإرادة الخالق، وهو مفهوم فلسفي بالدرجة الثانية فهو يدل على كلّ ما هو مشترك إنسانيا من المبادئ والقيم كحقوق الإنسان، والعدالة والحريّة وغيرها، ولذلك يعد الكوني هو الفضاء أو الأفق المشترك الذي يحمل خصائص وصفات مشتركة توحّد كافّة البشر على اختلاف خصوصياتهم وتنوعها .

إن الكونية بمعناها الأصيل هي نوع من العالمية التي تعني التخاصب والتفاعل بين الثقافات الإنسانية، وهو تفاعل وتخاصب يعتمد على مبدأ التوازن والتكامل والتكافؤ ويهدف إلى إغناء التجربة الثقافية الإنسانية وتأصيل قيمها المشتركة. ومن هنا فان الكونية مطمح الإنسانية ومجال لالتقاء وحوار الثقافات تستند لثقافة حقوق الإنسان والديمقراطية والمواطنة، ويقتضي تحقيق الكونية الجذرية توفر جملة من الشروط أهمها الانفتاح والاعتراف والقبول بالاختلاف والمحافظة على التنوع واستثمار التعدد والإيمان بالتسامح والابتعاد عن العنف، والتخلي عن التعصب والعزلة والانطواء[17]، وهنا نجد كلود ليفي ستروس(Claude Lévi-Strauss) (1908- 2009) يؤكّد على ضرورة قبول الانفتاح على الحضارات الأخرى دون التفريط في مقوّمات الهويّة بل و بضرورة اعتبار كلّ واحدة أنّها تتميّز بقدر من التفوّق وهو ما يمنحها القدرة تحقيق قدر أوفر من الإبداع و من تحقيق التميّز عن بقيّة الحضارات[18].

ولعله من المفيد هنا أن نتوقف هنا مع الدلالة الفلسفية للكونية مع كانط (Immanuel Kant)(1724- 1804) فيلسوف التنوير والحداثة وصاحب أهم صياغة فلسفية لجمهورية معدلة تراهن على منزلة الإنسان بوصفه ذاتا حرة ومواطنا مستقلا وإنسانا جديرا بأن يكون سعيدا ومواطنا كونيا في عالم يتسع للجميع، ويعتبر كانط أهم فيلسوف قدم صياغة فلسفية للحداثة السياسية قائمة على تصور فلسفي للإنسان بوصفه غاية في حد ذاته، مراهنا في ذلك عبر مصالحة بين الأخلاق والسياسة على بعد كوسموسياسي لنظرية الحق أي على استشراف دولة السلم الدائمة القائمة على المواطنة الكونية في العالم التي تقوم على الحرية والمساواة والاستقلالية الشخصية [19].

ويقدّم يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) (1929ـ) من خلال حديثه عن المواطنة مفهوما آخر للكونية يقوم على احترام منزلة الحق الفردي للذات الإنسانية بما هي ذات تنتمي للمجموعة الإنسانية الكونية "أنتمي للبشر" إن الإنسان الكوني يقتضي وجوده شروطا واقعية ووعيا يؤهله إلى الانخراط في تأسيس عالم آخر وإنسان كوني حين يتغير تصورنا للعالم وللإنسان و"الأخوة" سنؤمن بالمصلحة المشتركة، وحين تقع كارثة طبيعية بالصين تهزني لأن هذه الأرض كوكبنا جميعا ومشاكل التلوث والإشعاعات النووية وثقب الأوزون هي مشاكل تهددنا كإخوة في الإنسانية ، لما نعلم أطفالنا احترام معتقدات الأخر وقيمه لما نعلم أطفالنا الإنسان وقيمه حينها سنؤسس إلى المواطن الكوني، ولا يمكن أن نتحدث عن الكونية الإنسانية بمعزل عن واقعنا الإنساني الذي يشهد غياب العدالة الاجتماعية وتغلغل الرأسمالية المتغطرسة التي أضاعت الإنسان فينا ولم يعد للإنسان قيمة، إن مشروع الكونية يتطلب وعينا بضرورة النضال من أجل التخلي عن التفاوت الوضيع بين الدول خاصة على المستوى الاقتصادي باعتباره المحدد لكل المستويات الأخرى السياسية الاجتماعية .

إن الإنسان الكوني يحتاج ومن دون شك إلى ولادة جديدة، فهو يحتاج إلى تربية كونية وعالم دون الرأسمالية والتعصب والطبقية والعولمة، فالكوني ليس قرارا أو رغبة لدولة من الدول أو لفيلسوف أو جمعية أو منتدى بل هو شأن إنساني بل إن هابر ماس يراهن على أنه ضرورة تتجه لها البشرية جمعاء، ويرى ماركس أن الكونية حتمية تاريخية تتجه نحوها بالضرورة التجربة الإنسانية ففهم الإنسان أن الإنسانية تشترك في هم واحد ومصير واحد سيقود إلى رفض" كوني الموت": والهيمنة وتأسيس كوني الإنسانية والحياة .

ولابد أن يكون كوني الحياة كونيا مبدعا خلاقا منفتحا تميزه قوى الفعل لا قوى الانفعال، كوني إيثيقي تسوده القيم الإنسانية الحب الانضباط الصدق، التضحية، هذه هي القيم التي ضاعت في زمننا هذا، الذي أصبح الكل فيه يدعي امتلاك الحقيقة ويتعصب لها، وأضحت الخصوصية والهوية خطرا يهدد الإنسانية، وهي التي يفترض بها أن تضمن وتحمي التنوع الإنساني .

إن الكونية الإنسانية تدعو إلى التنوع، ولا يمكن للخصوصية أن تحمي هذا التنوع إلا إذا عادت القيم الإنسانية إلى البشرية جمعاء، فالخصوصية حينها لا يمكن أن تمثل خطرا في عالم تسوده القيم الإنسانية، وسكانه تحكمهم وحدة المصير، ويحكم تعاملاتهم الحب، الانضباط والعمل من أجل المصلحة المشتركة، بالعدل، والحرية والعقل وحينها ستكون الكونية الإنسانية أفقا للخصوصية[20].

وإذا كان الكوني يؤمن بحقوق الإنسان وبالحريات وبضرورة احترام وإدماج الخصوصيات مع الإبقاء على اختلافها ضمن الكل المشترك، فهل بإمكانه تحقيق ذلك في ظل فضاء العولمة، هذه الأخيرة التي أصبحت فضاء واسعا للافتراضي . فهل صحيح أن الكوني قد اختفى مثلما أشار إلى ذلك بودريار (Jean Baudrillard)(1929–2007)، وهل العولمة هي جسر الكوني الوحيد نحو العالمية؟

رابعا: العولمة والعالمية وضياع الكوني :

إن العولمة هي الطرف الثالث الذي يفرض نفسه إلى جانب العالمية والكونية، وهو طرف يؤكد قدرته على الامتداد والاكتساح، ويفرض نفسه كواقع بل كحتمية اقتصادية وثقافية، فقد أضحت المساهمة الأمريكية في الإنتاج الثقافي والمادي والمعنوي تملأ الفضاء العالمي الجديد الذي أنتجته ثورة المعلومات[21] .

وعندما يندمج العالم كله إعلاميا واتصاليا وثقافيا في فضاء العولمة فإن الذي يتحقق هو الأمركة العالمية أو ما تسمى بالعولمة، أما الكوني فإنه يتلاشى في ظل غياب الحرية وانتهاك حقوق الإنسان، فكأن الحياة قد وهبت للعولمة على حساب موت الكوني والخصوصي والعالمي، فالعولمة هي اختراق للعالمية وتمييع لها بإقصاء الخصوصيات الثقافية وتجاهلها .

إن أكبر مشكلة تعاني منها البشرية اليوم هي كيفية ايجاد عالمية ترتكز في قوامها الوجودي على احترام مبدأ الحق الكوني فيعاد للكوني اعتباره في ظل عالمية بديلة لا تهمل تنمية الخصوصيات، وتسعى لإرساء دعائم كونية متفتحة على التعدد. فالعالمية نزعة إنسانية توجه التفاعل بين الحضارات، والتعاون والتساند والتكامل والتعارف بين مختلف الأمم والشعوب، والحضارة العالمية نزوع عالمي يرى التعدد والتنوع والاختلاف القاعدة والقانون، وهذا التعريف للعالمية يختلف عن التعريف الغربي في وقتنا الراهن، إذ أن التعريف الغربي الآن يؤمن بالنزعة المركزية اللصيقة بالنموذج الحضاري الغربي منذ القديم، ولهذا فإن الجديد فيه، هو تصاعد في درجة النزعة المركزية، ووحدة التطبيق لها. والسبب في ذلك هو التطورات الجديدة التي طرأت على العالم، ومن ثم علاقة النظام الغربي بالعالم غير الغربي، والذي يطمح في صب العالم اقتصادياً وسياسياً وقيمياً وثقافياً وعسكرياً.. الخ، داخل قوالب غربية .

من هنا نقول إن العولمة والعالمية الآن زعامة أمريكية، توضحها أساليب الليبرالية الأمريكية المستخدمة، والتي نلحظ آثارها في الفروقات الاقتصادية الهائلة بين دول الشمال والجنوب، على الرغم من فروقات الكثافة السكانية الهائلة بين الاتجاهين كما يوضحها أيضاً تهميش دور المنظمات الدولية لحساب مؤسسات الدولة الأمريكية، فمجلس الأمن القومي الأمريكي يكاد يحل محل مجلس الأمن الدولي، والكونغرس الأمريكي أصبح يشرع للعالم بأسره ويصدر القوانين التي تصنف الدول بمارقة وإرهابية، ومحاصرة وغير محاصرة، ودول تفرض عليها المقاطعة والعقاب، ودول لا تستحق المقاطعة أو العقاب، ودول يستحق إنسانها الحياة والتمتع بحقوق الإنسان، وأخرى لا تستحق، ويصل التشريع الأمريكي إلى حد إصدار القوانين، واعتماد الميزانيات العلنية لتغيير نظم الحكم، هذا بالإضافة إلى استخدام القوة العسكرية الغاشمة لمن تسول له نفسه بالتمرد والعصيان، فمن لم تردعه التحذيرات والعقوبات، تردعه الصواريخ والمقاتلات[22].

إن العالمي والكوني اليوم قد أصبح كوني هيمني، ولذلك يحذر بودريار من خطورة الخلط بين الكوني الإنساني والعالمي أو العولمي والعولمة، وبالتالي بيان خطورة العولمة التي لا تهدّد الخصوصيات فقط بل تهدّد الكوني أيضا فالكوني من منظور بودريار يهلك بالعولمي ففي الوقت الذي يتصاعد فيه العولمي يشهد الكوني تراجعا رهيبا فإذا كانت العولمة تحيل على ما يتّصل بالاقتصادي و بكلّ ما هو ثورة تكنولوجيّة و اتّصالية و تكرّس لا جنسيّة رأس المال و انفتاح الأسواق أمام كلّ البضائع... وإذا تعلّق الكونيّ بالقيم الإنسانية كالحريّة والديمقراطية و حقوق الإنسان، و ما كانت فلسفات الأنوار تنظّر له.. فإنّ الفروق واضحة بل هي فروق مدّمرة للقيمي الإنساني و تؤسّس لقيم بديلة تقوم

على البراغماتية والفاعلية، وهو ما يؤدّي إلى موت القيم و تدمير التنويعات الثقافية علاوة على كون هذا الموت قد يكون ناتجا عن اكتساح الحضارة الغربية للحضارات الأخرى، و العمل على إدماجها و صهرها في ثقافتها[23] .

إن الكونية التي تتحقق في ظلّ العولمة ليست كونية حقه، وإنما هي كونية مزيفة، إنها ادعاء للكونية، إنها العولمة المتنكرة في ثوب الكونية. ولذلك يلحّ بودريار على التقابل بين العولمة والكونية؛ لأن العولمة ليست إلاّ ادّعاءً للكونية ذلك أن العولمة تتعلق بالجانب الاقتصادي والتجاري، فهي "كونية" السوق والسياحة والإعلام، "كونية" تشيّؤ الإنسان وتنميطه، "كونية" العنف المحض الذي يعمل على إقامة عالم متحرر من القيم الإنسانية لفائدة الحياة الاستهلاكية.

إن الكونية الحقّة هي كونية القيم الإنسانية الثابتة، كونية الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، كونية لا تكون كذلك إلا كفكرة و كغاية مثالية . لكن هذا التقابل بين الكوني والعالمي ليس إلا تقابلا من جهة الحق لأن الواقع هو واقع عولمة الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ذلك أن هذه القيم الإنسانية أصبحت بضائع تروّج وتعبر الحدود كأي منتوج عالمي، لذلك يرى بودريار أن مرآة الكوني قد تكسّرت «لأن الكوني كان فكرة، تنتحر كفكرة، كغاية مثالية، عندما تتحقق في العولمي»[24].

ومن هنا يميّز "بودريار" بين كونية عصر التنوير التي ينظر إليها "كانط" من حيث هي كونية إنسانية تبقي على الاختلاف و الكونية كما تحققت في العولمة باعتبارها تدمير كل اختلاف و دمج بالقوة لكل الثقافات, قتل الثقافات و الخصوصية وإعلان شبه كونية تجسدت في عولمة القيم الغربية, لذلك فان العولمة ليست شيئا آخر غير الخصوصية الغربية المدعية للكونية. فهذه الثقافة الغربية التي كانت حبلى بالكوني، جاءها المخاض فولدت العولمة وماتت هي بدورها[25] .

وإذا كانت العولمة قد أفرغت عالمنا المعاصر من القيم الإنسانية النبيلة المنسجمة مع الفطرة فأدى ذلك إلى تعاسة الإنسان إذ خدمت العولمة مصالح الدول العظمى والشركات الاحتكارية الكبرى على حساب مصالح الشعوب الفقيرة فإن الباب على الرغم من ذلك يظل مفتوحا لتأمل البشرية في بناء عالمية "Cosmopolitisme" تعبّر عن التنوع الثقافي، وتحقق الاعتراف العادل والمتبادل بين الخصوصيات بحيث تنفتح على بعضها البعض مع احتفاظها بتنوعاتها، والإيمان بمجموعة من القيم المشتركة؛ كالاعتراف بالآخر وتأسيس علاقة حوارية بين الأديان والثقافات في إطار من الاندماج والعيش المشترك .

لقد قضى العولمي على العالمي والكوني، وقضى على كل الفروقات والخصوصيات، ولم تبق إلا خصوصية واحدة مهيمنة هي ديانة توحيدية جديدة هي ديانة السوق. إن الكوني كان فكرة جميلة يطمح أن يعانقها كل خصوصي، ولكن عندما حاولت العولمة أن تحققه في العالمي انتحر كفكرة وكغاية مثالية، وتحوّل إلى وسيلة تعبئة وآلة للصهر والإدماج لا غير.

إن الاختلاف ظاهرة ملازمة للبشريّة، وهي تعبّر عن الثراء، والتنوع، والإبداع، والتكامل، وهذا الاختلاف الحاصل بين الناس لا ينفي وجود قواسم مشتركة بينهم شأن العقل الذي يعتبر على حد تعبير ديكارت أعدل قسمة بين الناس، ويبقى الحوار و الانفتاح بين الهويّات هو السبيل للإبداع الذي يضمن حركيّة الثقافات و يُبقيها حيّة ويمكنها من

الوقوف في وجه العولمة التي هي بمثابة الكونية الزائفة والخادعة، ولا يمكن لخلاص البشرية أن يتحقق عن طريقها، ولذلك ينبغي أن تظهر حركات تتحدى هيمنة الكوني في شكله المعولم .

إن كل ما يحدث اليوم من مناهضة للعولمة هو علامة صحّية, علامة تمنع العولمي من إعلان انتصاره، وهذا ما يؤكده بودريار الذي ينتهي إلى الإقرار بتصدع العولمة بل حتى الإقرار بأن تصدعها في العمق يسير بنسق أسرع من نسق فرضها بالقوة, فالعولمة لم تنتصر، و الإنسانية اليوم أمام وضع معقّد و مركّب من ثلاث حدود هي عولمة التبادلات، و كونية القيم، و خصوصية الأشكال الثقافية، و هذه الوضعية تتغير بفقدان القيم الكونية لسلطتها وشرعيتها, ذلك أنّه كلما تقدمت هذه القيم كقيم وسيطة إلا و نجحت في ضمّ الخصوصيات كاختلافات في ثقافة كونية للاختلاف، و لكن هذه القيم تتراجع اليوم لان العولمة تقضي على الاختلاف و على كل القيم بوحشية ، وعلى الرغم من تدهور وضعية القيم الكونية فان العولمة في نظر بودريار لم تحسم الأمر بعد، و لن تحسمه بما أن رهانات الكوني الذي انهزم أمام العولمة تواصلها المقاومة ، فليست العولمة قدرا محتوما لا يمكن ردّه .

وفي ضوء متغيرات العصر المتسارعة بات من الضروري لنا أن نتساءل ما الذي علينا أن نفعل حيال سيطرة العولمة، هل نستسلم إلى عولمة التربية وما يترتب عليها من أخطار سياسية واقتصادية وثقافية؟ أم أنه يتحتم علينا الاستعداد لمواجهة إفرازات العولمة بتربية مواطنة عالمية واعية بمعطيات وتطلّعات المرحلة التي نمربها؟ المؤكد أننا سنختار الطرح الثاني، ولذلك علينا الاعتراف بالواقع المعاصر أولا ثم رفع تحدياته التربوية ثانيا والمتمثلة في كيفية تربية أبناء المجتمع بعولمته الجديدة، فإذا كانت العولمة قد أصبحت واقعا ملموسا لا يمكن تجاهله، ولا يمكن الاستسلام له، فإن معطياتها تطرح أمام تربية المواطنة مهمات عديدة، وكبيرة تستطيع من خلالها أن تبرهن على قدرتها على الاستفادة من ايجابيات ظاهرة العولمة في مواجهة العولمة ذاتها، وتفادي انعكاساتها السلبية على الفرد والمجتمع، والبداية من دون شك ستكون بتوعية المواطن بطبيعة ظاهرة العولمة، وأبعادها وأهدافها القريبة منها والبعيدة المدى خاصة وأن العولمة ما تزال غير مكتملة، ومن المتوقع أن تتواصل تأثيراتها وإفرازها وتفاعلاتها مدّة طويلة قبل أن تضبط وتنظّم، وحتى إذا ما افترضنا أن النظام العالمي يستهدف الهوية الثقافية والتربوية للفرد، والمجتمع، والدولة الوطنية، فإن من واجب تربية المواطنة أن تعمل على إعداد المواطن فكريا، وسلوكيا لأداء واجبات المواطنة، والمشاركة الفعلية في الحياة الاجتماعية والسياسية، وتوعيته بحقوقه وواجباته، وأن يمارس الديمقراطية واحترام الآخرين، وتمثّل وفهم الفروق الثقافية والتعددية، وكيفية التعامل معها بعقلية متفتحة ومهيأة للتغيير[26].

خاتمة:

وختاما يمكننا القول ودونما تردد بأن العالمي لا يمكن أن يتماهي مع الكوني؛ لأن العالمي تلاشى في العولمي وضاع فيه فضاعت المبادئ والقيم فأصبح العالمي ينطوي على الوحشية والهمجية وانتهاك حقوق البشر فالعالمية بالصورة التي هي عليها اليوم لا يمكن أن تتماهى مع الكونية؛ خاصة في هذا الزمن الذي أصبحت فيه العولمة ظاهرة كونية وفضاء عالميا تهيمن عليه الثقافة الغربية وتتحول فيه الهويّة الثقافية من إطارها القومي الخاص لتندمج، وتضيع وتتلاشى وتفقد خصوصيتها في فضاء العولمة، ولأن المجتمع العربي الإسلامي قد كان ومازال وسيظلّ مستهدفا في دينه، وثقافته، فإن هويّته ستظل ومن دون شك عرضة لخطر الاهتزاز، والتمزق والضياع .

إن العولمة ولا شك هي أمر مفروض خارج عن إرادة الدول والشعوب، ولذلك فإنه من العبث التفكير في الرفض المطلق لها أو مقاطعتها، واللجوء إلى التشرنق والانغلاق على الذات، ومن الحكمة الحرص على استغلال فرص التغيير، والتجديد، والإصلاح في هذا الفضاء العولمي، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن العولمة لا تعني العالمية والكونية التي يدعو إليها الإسلام، ولذلك ينبغي تحرّي ايجابيات العولمة والتجديد، تلك التي تنسجم مع خصوصيتنا الثقافية، وهويتنا الحضارية .

لقد صار لزاما في عصرنا الراهن اتخاذ موقف من "العولمة"، وينبغي لهذا الموقف أن يكون موقفا فاعلا لا منفعلا، ولا بد من الانخراط الإيجابي في مواجهتها، ليس بنفيها أو تجاهلها، بل بالعمل على فرض المبادئ والقيم الكونية والعالمية التي جاء بها الإسلام والمساهمة في فرض عالمية جديدة مغايرة للعالمية الحالية، وحينها يمكن الحديث عن تماهي الكوني والعالمي .

ـ الهوامش والمراجع:

[1]– صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، ط2، 1999، ص 293.

[2]– يقصد الغرب بمصطلح العولمة "Global" أو "Universal" أن الغرب قد حقق أهدافاً عالية في مجال التكنولوجيا والكمبيوتر، فتطور خلال السنوات الأخيرة تطوراً هائلاً في حقل الاتصالات، والمعلومات، والإنترنت، وحقق الكثير من الإنجازات. أما المنظور الأمريكي للعولمة فإنه يجمع بين أمور التكنولوجيا والاقتصاد والسياسة والسلوك والقيم والأخلاق، أي لا يريد أن يسيطر على الجوانب المادية فحسب، إنما يتعدى ذلك إلى القيم الاجتماعية للشعوب أحمد شلبي: العولمة، مجلة المنهل، العدد 557، المحرم 1420هـ . أبريل/ مايو 1999م، ص 46 .

[3]– صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، ص 293.

[4]– المرجع نفسه، ص293.

[5]– فالغرب مثلا يحاول أن يجمع اقتصاد المجتمعات غير الغربية في نظام اقتصادي عالمي يسيطر عليه. وعن طرق صندوق النقد الدولي والمؤسسات الاقتصادية الدولية الأخرى ينمي الغرب مصالحه الاقتصادية ويفرض على الدول الأخرى السياسات الاقتصادية التي يراها ملائمة.ـ صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، ط2، 1999، ص 294.

[6]ـ أحمد مجدي حجازي: العولمة وتهميش الثقافة الوطنية، رؤية نقدية من العالم الثالث، عالم الفكر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والآداب المجلد28، العدد 2، اكتوبر/ ديسمبر1999م، ص 128.

[7]– عبد العزيز بن عثمان التويجري: العالم الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق، القاهرة، (د.ط)، (د.س) ص14.

[8]– تباينت تعاريف وآراء ومواقف العلماء والمفكرين والباحثين حول العولمة؛ كما تنوعت سياسات وأساليب القوى العالمية التي تقف خلفها، والأيادي التي تنسج خيوطها، والمبررات التي تطرحها، كما تعددت الجهات التي تروج لها

وتدافع عنها وتستفيد منها، وهذا ما جعل من مفهوم العولمة مفهوما غامضا يصعب ضبطه. ـ أحمد علي الحاج محمد: العولمة والتربية آفاق مستقبلية، سلسلة كتاب الأمة، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، قطر، العدد 145 رمضان 1432هـ، ص37. هناك اتجاهان للعولمة، الأول إيديولوجي أمريكي يحاول قولبة أنظمة الحياة في العالم على صورة نظامه بلا مراعاة لوجود خصوصيات ثقافية قد لا يلائمها نمط الحياة الأمريكي، أو تتعارض قيمها ومثلها الاجتماعية مع القيم الأمريكية. والثاني يرى أن العولمة هي نوع من أنواع انتخاب وانتقاء المثل الإنسانية العليا في كل الخبرات الحضارية، وترقيتها لتصبح نموذجاً عالمياً يتم التعامل معه كنموذج مثالي تستهدفها المجتمعات العالمية فتقترب منه بما تسمح به برامج الإصلاح فيها ، وبقدر ما تحمله موازناتها، وهذا التعريف ليس سوى محاولة لتيسير التعامل مع الظاهرة، لكن الواقع يشير إلى أن السائد هو النموذج الأول، الذي عززه انهيار الكتلة الاشتراكية وفتح الأبواب أمام المهرولين نحو القطب المهيمن اتقاء لشره، وذوباناً في ثقافته فالعولمة أمركة.ـ سليم بركات مفاهيم ومصطلحات العالمية والعولمة . https://annabaa.org/nbahome/nba74/mafaheem.htm

[9] ـ أحمد علي الحاج محمد: العولمة والتربية آفاق مستقبلية، ص 40

[10] – إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: معجم مصطلحات عصر العولمة، ص 334. www.kotobarabia.com

[11] – أحمد علي الحاج محمد: العولمة والتربية آفاق مستقبلية، ص 38 .

[12] – زهير الخويلدي: الكوني والعالمي والعولمي
http://www.grenc.com/show_article_main.cfm?id=11819

[13] – برهان غليون، سمير أمين: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط1، 1999، ص44.

[14] – علي صباغ: نحو عصر جديد في تربية المواطنة، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد2، جوان 2014، ص113.

[15] – زهير الخويلدي: الكوني والعالمي والعولمي

[16] – سورة الحجرات، الآية 13.

[17] ـ زهير الخويلدي: الكوني والعالمي والعولمي

[18] - سامي الملّولي: مسألة الخصوصيّة والكونية http://tareekelnajeh.blogspot.com/2012/03/blog-post_08.htm

[19] – أم الزين بنشيخة المسكيني: الدلالة الفلسفية لمفهوم المواطنة
http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=325697&r=0

[20] – عمر بلخشين: المواطنة العالمية الكونية الإنسانية ومخاطر القول بالخصوصية
http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=328239&r=0

[21] - برهان غليون، سمير أمين: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، ص46 .

[22] – سليم بركات: مفاهيم ومصطلحات العالمية والعولمة
https://annabaa.org/nbahome/nba74/mafaheem.htm

[23] -سامي الملّولي: مسألة الخصوصيّة والكونية

[24] - ابراهيم قمودي العولمة والكونية عند بودريار

https://www.tunisia-sat.com/forums/threads/204985

[25] ـ إبراهيم قمودي: العولمة والكونية عند بودريار

[26]– علي صباغ : نحو عصر جديد في تربية المواطنة، ص114 .